# صُوَرٌ لِلْحَبِيبِ الإلهيِّ في ثَلاثةِ آدابٍ عالَمِيّةٍ: ابنُ الفارِضِ وجَلالُ الدِّينِ الرُّومِيّ ونيكلسون(*)

أ. د. عيسى علي العاكوب(**)

يَسْعَى هذا البَحْثُ لِأَنْ يَعْرِضَ عَلَى القارئ الكريمِ ثَلاثَ صُوَرٍ تَناوَلَ فِيها ثَلاثةُ شُعَراءَ مِنْ آدابٍ قَوْميّةٍ مُختَلِفةٍ فِكْرةَ «الحَبِيبِ الإلهيِّ»، الذي بَدا واحِدًا هو عَيْنُه عِنْدَ الشُّعَراءِ الثّلاثةِ، مَعَ اختلافِ أَجْناسِ الشُّعراءِ وتَبايُنِ تقالِيدِهم الثّقافيّةِ **their cultural traditions** ولُغاتِهم القَوْميّة. ويَتناوَلُ البَحْثُ في مُعالَجةِ الفِكْرةِ النِّقاطَ الآتيةَ:

- **الحَبِيبُ الإلهيُّ عِنْدَ سُلْطانِ العاشِقينَ ابْنِ الفارضِ في الأَدَبِ العربيّ.**
- **الحَبِيبُ الإلهيُّ عِنْدَ جَلالِ الدِّينِ الرُّوميِّ في الأَدَبِ الفارسِيِّ.**
- **الحَبِيبُ الإلهيُّ عِنْدَ نيكلسون في الأَدَبِ الإنكليزيّ.**
- **خُلاصَةُ ما قَصَدَ إِلَيْهِ البَحْثُ.**

---

(*) هذا البَحْثُ عُرْبُونُ تَقْدِيرٍ لِجَنابِ الصّديقِ الدّكتور مُحَمّد الحُورانيّ الذي حَرّضَ عَلَى إنشائه (ع. العاكوب).

(**) عُضْوُ مَجْمَعِ اللّغةِ العربيّةِ في دِمَشْق، أستاذُ البلاغةِ والنّقدِ في جامعةِ حَلَب

ورد إلى مجلة المجمع بتاريخ ٥/ ٥/ ٢٠٢٥م.

## بَيْنَ يَدَيِ الفِكْرة:

في أَشْعارِ عناصِرَ بَشَريّةٍ مُختَلِفةٍ، يَجِدُ المَرْءُ فِكْرةً بِعَيْنِها تَسْتَبِدُّ بِالعالَمِ الرُّوحيِّ والعَقْليِّ والتَّخْييليِّ لِلشّاعِر. ومِن أَظْهَرِ هذه الفِكَرِ في هذا الشّأنِ فِكْرةُ «الحَبيبِ الإلهيِّ»، المالِكِ العَظيمِ المُمْسِكِ بِزِمامِ الوُجودِ إيجادًا وتَصَرُّفًا ومَصيرًا. وتُعلِّمُنا مَبادئُ مَدْرسةِ القُرْآنِ الكريمِ مَبْدَأً أَزَلِيًّا يَنتمي في المَآلِ إِلَى صِنْفِ اليَقِينيّاتِ التي تُسلِّمُ بِها العُقولُ السَّليمةُ والفِطَرُ المُحتَفِظَةُ بِنَقائِها وأَصالَتِها؛ وهِيَ أَنّ صِنْفًا مِنَ الشُّعَراءِ لا تَجِدُ في أَشْعارِهم إلّا الحَقائقَ المُقرَّرةَ والكُشُوفَ الخارِقةَ المُتجاوِزةَ لِلْمَألُوف. وقد جاءَ ذلك في الوَحْيِ القُرْآنيِّ عَلَى هذا النَّحْوِ:

﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

وشَطْرُ الآيةِ الذي يُهِمُّنا هُنا هو الذي يَبْدَأُ بِـ«ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ...». ويُفْهَمُ مِن جِهَةِ اللُّغةِ هُنا أَنّ أَظْهَرَ صِفاتِ الشُّعَراءِ في الفَريقِ الثّاني المُسْتَثْنَى أَنّهم «ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟». ومَعَ أَنّ الإطارَ التّاريخيَّ لِنُزُولِ هذه الآياتِ حاسِمٌ في تَقْريرِ معنًى خاصٍّ، تَظَلُّ طَبيعةُ الكلامِ الإلهيِّ تَأْذَنُ بِضَرْبٍ مِنَ التَّعْميمِ في تَحْصيلِ المُرادِ؛ الأَمْرُ الذي يُعبَّرُ عَنه بِالقاعِدَةِ التّفسيريّةِ الأُصُوليّةِ: «العِبْرةُ بِعُمومِ اللَّفْظِ لا خُصُوصِ السَّبَب».

والمُرادُ هنا قابِلٌ لِأَن يُفْهَمَ بِأَنّ هذا الصِّنْفَ مِنَ الشُّعَراءِ مُؤمِنٌ في قَلْبِه بِالخالِقِ العظيمِ، عامِلٌ في حَياتِه أَعْمالَ الخَيْرِ التي يَرْضاها اللهُ سُبْحانَهُ، ذاكِرٌ لله كثيرًا، لا يُعادي إلّا بَعْدَ أَن يُعْتدَى عَلَيه.

وجُمْلةُ هذه الصِّفاتِ قابِلَةٌ لِأَن يُفهَمَ مِنها فِكْرةُ «حُبِّ اللهِ». فالشّاعِرُ المُؤمِنُ العامِلُ لِلصّالِحاتِ الذّاكِرُ للهِ كثيرًا الذي لا يَبْدَأُ العُدْوانَ في شِعْرِه، لا يمكنُ إلّا أَن يكونَ «مُحِبًّا للهِ».

ويَبْدُو حُبُّ الشّاعِرِ اللهَ مُؤذِنًا بِقَلْبٍ وعَقْلٍ وخَيالٍ مُتجاوِزَةٍ المَحْسُوسَ إِلَى عالَمٍ مِنَ المَعاني يَتحدّثُ عَنْهُ الرُّسُلُ والكُتُبُ الإلهيّةُ، وتتفيَّأ ظِلالَهُ قُلُوبُ الشُّعَراءِ المُحِبِّينَ للهِ وعُقولُهُم وأَخْيلَتُهم.

ويَرْبِطُ القُرْآنُ الكريمُ بِقُوّةٍ بَيْنَ «الإيمانِ» بِالله و«حُبِّ اللهِ»، فيُعْلِنُ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]. ويَرْبِطُ كذلكَ بَيْنَ «الإيمانِ» و«الأَمْنِ» حِينَ يقولُ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ [الأنعام: ٨٢]. ولا نَخالُ شاعِرَ الإسلامِ الفَيْلَسُوفَ مُحَمّد إِقْبال اللّاهُوريَّ (ت ١٩٣٨م) نَأَى عَن هذا القَصْدِ حِينَ قالَ:

**إِذا الإيمانُ ضاعَ فَلا أَمانٌ ... ولا دُنْيا لِمَن لَمْ يُحْيِ دِينا**

**ومَن رَضِيَ الحَياةَ بِغَيْرِ دِينٍ ... فَقَدْ رَضِيَ الفَناءَ لَها قَرينا**

ولافِتٌ في شَأنِ الشّاعِرِ المُحِبِّ للهِ أن يُقَدِّمَ في شِعْرِه صُورةً لِحالِ قَلْبِه وعَقْلِهِ وخَيالِه أَقْدَرَ عَلَى تَخْلِيدِ عَظَمةِ الحُبِّ الذي يَأْخُذُ مِنْهُ كُلَّ مَأْخَذٍ. وتتوزّعُ حالُ الشّاعِرِ المُحِبِّ للهِ وتَتبايَنُ وَفْقًا لِلْأحوالِ التي تَعْرِضُ لِقَلْبِه. ورُبّما يكونُ مُفِيدًا هُنا ذِكْرُ ما كانَتْ عَلَيهِ أَحْوالُ الشّاعِرةِ المُحِبّةِ رابِعَةَ الشّامِيّةِ رَحِمَها اللهُ تعالى، وكانَتْ هذه زوجةَ الصُّوفيِّ الشّامِيِّ أَحْمَدَ بنِ أبي الحَواريّ. ويقولُ عَنها أَحْمَدُ هذا: «كانَتْ أَحْوالُها مختلفةً. حِينًا كانَ يَغْلِبُ عَلَيها العِشْقُ والمَحَبّةُ، وحِينًا كانَ يَغْلِبُ عَلَيها الأُنْسُ، وحِينًا الخَوْفُ. وفي غَلَبةِ الحُبِّ كانَتْ تقولُ:

**حَبِيبٌ لَيْسَ يَعْدِلُهُ حَبِيبُ وما لِسِواهُ في قَلْبِي نَصِيبُ**
**حَبِيبٌ غابَ عَن بَصَري وشَخْصي ولكنْ عَنْ فُؤادِي لا يَغيبُ**

وفي حالِ الأُنْسِ كانَتْ تقولُ:

**ولَقَدْ جَعَلْتُكَ في الفُؤادِ مُحدِّثي وأَبَحْتُ جِسْمي مَنْ أَرادَ جُلُوسي**
**فالجِسْمُ مِنِّي لِلْجَليسِ مُؤانِسٌ وحَبِيبُ قَلْبي في الفُؤادِ أَنيسي**

وسَمِعْتُ أَنّها كانَتْ في حالِ الخَوْفِ تقولُ:

**وزادِي قَلِيلٌ لا أَراهُ مُبَلِّغي أَلِلزّادِ أَبْكي أَمْ لِطُولِ مَسافَتي؟**
**أَتُحْرِقُني بِالنّارِ يا غايةَ المُنَى فأَيْنَ رَجائي مِنْكَ، أَيْنَ مَخافَتي؟**[1]

**- الحَبِيبُ الإلهيُّ في ثَلاثةِ آداب:**

يَرْمي هذا البَحْثُ إِلَى أَن يُقَدِّمَ لِلْقارئ الكريمِ ثَلاثَ صُوَرٍ لِلْحَبيب الإلهيِّ في أَشْعارِ ثَلاثةِ أَقْوامٍ: العَرَب والفُرْس والإنكليز. ويَختارُ لِهذا الغَرَضِ صُورةً واحِدةً عِنْدَ شاعِرٍ واحِدٍ مُمَثِّلٍ لِكُلٍّ مِن هذه الأَقْوام. وقد وَقَعَ الاختيارُ في هذا الشّأنِ هنا عَلَى مجموعةِ أَبْياتٍ في فِكْرةِ «الحَبيبِ الإلهيِّ» عِنْدَ كُلٍّ مِن سُلْطانِ العاشِقين عُمَرَ بنِ عَلِيٍّ المَعْروفِ بِابْنِ الفارضِ (ت ٦٣٢هـ)، وجَلالِ الدّين مُحَمَّدِ بنِ مُحَمّدٍ المَعْروفِ بِ«مَوْلانا الرُّوميِّ» (ت ٦٧٢هـ)، ورِينُولد أَلِين نِيكلسون الإنكليزيّ (ت ١٩٤٥م).

ويَشترِكُ الشّعَراءُ الثّلاثةُ في تقديمِ صُورةٍ في غايةِ السُّمُوِّ والأَلَقِ لِلْحَبيبِ الإلهيِّ، سُبْحانَه. ويُؤمِّلُ الكاتِبُ أَنْ يُقدِّمَ لِلْقارئ شيئًا مِن المُشْتَرَكِ والخاصِّ في تَناوُلِ كُلٍّ مِن هؤلاءِ الشُّعَراء.

(١) نُور الدّين عبدالرّحمن جامي، نَفَحاتُ الأُنْس، نَشْرة الدّكتور محمود عابدي، انتشارات اطّلاعات، طهران. ١٣٧هـ.ش، ص٦١٧.

**– الحَبِيبُ الإلهيُّ عِنْدَ سُلْطانِ العاشِقِين ابنِ الفارض في الأَدَبِ العربيّ:**

لِابْنِ الفارِض سُهْمةٌ وافِرَةٌ في شِعْرِ المَحَبّةِ الإلهيّة. ويُعَدُّ أَشْعَرَ شُعَراءِ التّصوّفِ في العربيّة، ومِنْ أَبْدَعِ مَن جَوّدُوا في فِكْرةِ «الحَبيبِ الإلهيِّ» حتّى إنّه لُقِّبَ بِسَبَبِ ذلك «سُلْطانَ العاشِقين». وقد آثَرْنا أَن نُقدِّمَ لِلْقارئ رائيّتَهُ التي نَخالُ أَنّها نَمُوذَجٌ رائعٌ، لا في العربيّةِ فَحَسْبُ بَلْ في كُلِّ لُغاتِ الأرض. وتَمْضي طَرِيقَتُنا في تَناوُلِ الصُّوَرِ الثّلاثِ عَلَى نَهْجِ أَن نُقَدِّمَ الأَثَرَ الشّعريَّ، ونَعْرِضَ بَعْدَ ذلكَ مُناقَشتَنا؛ ابتغاءَ أَن يكونَ القارئُ أَمامَ فُرصَتَيْنِ لِلنَّظَرِ والتّأمُّل.

يَقُولُ ابنُ الفارِضِ في الرّائيّةِ مُخاطِبًا الحَبيبَ:

| | |
|---|---|
| زِدْني بِفَرْطِ الحُبِّ فِيكَ تَحَيُّرا | وارْحَم حَشًا بِلَظَى هَواكَ تَسَعَّرا |
| وإذا سَأَلْتُكَ أَن أَراكَ حَقِيقةً | فاسْمَحْ ولا تَجْعَلْ جَوابِيَ لَنْ تَرَى |
| يا قَلْبِ أنتَ وعَدْتَني في حُبِّهِمْ | صَبْرًا فَحاذِرْ أَن تَضيقَ وتَضْجَرا |
| إِنّ الغَرامَ هُوَ الحَياةُ فَمُتْ بِهِ | صَبًّا فَحَقُّكَ أَن تَمُوتَ وتُعْذَرا |
| قُلْ لِلّذينَ تَقَدَّمُوا قَبْلي ومَن | بَعْدِي، ومَن أَضْحَى لِأَشْجاني يَرَى |
| عَنِّي خُذُوا، وبِيَ اقْتَدُوا، ولِيَ اسْمَعُوا | وتَحدَّثُوا بِصَبابَتي بَيْنَ الوَرَى |
| ولَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الحَبيبِ وبَيْنَنا | سِرٌّ أَرَقُّ مِنَ النَّسيمِ إِذا سَرَى |
| وأَباحَ طَرْفِي نَظْرةً أَمَّلْتُها | فغَدَوْتُ مَعْروفًا وكُنْتُ مُنَكَّرا |
| فَدُهِشْتُ بَيْن جَمالِهِ وجَلالِهِ | وغدا لِسانُ الحالِ عَنِّيَ مُخْبِرا |
| فَأَدِرْ لِحاظَكَ في مَحاسِنِ وَجْهِهِ | تَلْقَى جَميعَ الحُسْنِ فيهِ مُصَوَّرا |
| لَوْ أَنّ كُلَّ الحُسْنِ يَكْمُلُ صُورةً | ورآهُ كانَ مُهَلِّلًا ومُكَبِّرا[٢] |

(٢) شَرْحُ ديوانِ ابن الفارِض الذي جَمعَه رَشِيدُ بنُ غالِب مِن شَرْحَي الشَّيْخَين البُوريني والنّابلسيّ، ط١، المطبعة الأزهريّة المِصْريّة عام ١٣١٩هـ، ج١، الصّفحات ٢٠٨-٢١٣.

تُقدِّمُ هذه اللَّوْحةُ في «الحَبيبِ الإلهيِّ» صُورةً جَريئةً لِتَعَلُّقِ الشّاعِر المُحِبِّ بِمَحْبُوبِه. ولافِتٌ في هذه الأَبْياتِ أَنّ الشّاعِرَ يُرَكِّزُ عَلَى الثُّنائيّةِ المَعْهُودةِ في الحُبِّ البَشَريِّ: المُحِبِّ المَأخوذِ تَمامًا بِجَمالِ المَحْبُوب، والمَحْبُوبِ الإلهيِّ المُسْتَغْني المُتأبِّي. ويَشِي التّحدُّثُ عَنِ «الحُبِّ» بِهذه الطّريقةِ بِـ«بَرْزَخٍ» بَيْنَ الحُبِّ البَشَريِّ والحُبِّ الإلهيّ. وههُنا تكونُ الحُدُودُ واضِحةً ومَعالِمُ القُطْبَيْنِ مُحَدَّدَةً تَمامًا.

وتَتوزَّعُ جُمْلةُ الأبْياتِ عَلَى ثلاثةِ مَدارجَ:

- الأَبْياتُ الأربعةُ الأُولَى في الاستزادةِ مِن الحُبِّ، بِطَلَبِ دَرَجَةِ التَّحيُّرِ التي تنشَأ عن «فَرْطِ الحُبِّ». والشّاعِرُ يَطْلُب زِيادةَ «التّحَيُّرِ»، ويَطْلُبُ في الوَقْتِ نفسِه الرَّحْمةَ لِلْحَشا الذي تَحرّقَ بِنارِ هَوَى المحبوب. ثُمّ يَطْلُبُ بَعْدَ ذلكَ «المُشاهَدةَ» الحقيقيّةَ. ويُعَلِّقُ رَشِيدُ بنُ غالِب شارِحُ الدّيوانِ في شَأنِ البَيْتِ:

**وإذا سَأَلْتُكَ أَن أَراكَ حَقِيقةً فاسْمَحْ ولا تَجْعَلْ جَوابِيَ لَن تَرَى**

فيَقُولُ: «في البَيْتِ تَلْميحٌ إِلَى قِصّةِ مُوسَى عَلَيهِ الصّلاةُ والسّلامُ، حَيْثُ طَلَبَ مِنْ رَبِّهِ الرُّؤيةَ، فإنّهُ أُجِيبَ بِـ«لَنْ تَراني» في قَوْلِه تَبارَكَ وتعالى: ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]. واعْلَمْ أَنّ كثيرًا مِنَ الصُّوفيّةِ يَعْتَرِضُ عَلَى هذا البَيْتِ ويقولُ: «إذا كانَ مُوسَى قد مُنِعَ الرُّؤيةَ عِنْدَما طَلَبَها، فكيفَ تَرَقَّتْ هِمّةُ الشّيخِ إِلَى طَلَبِها؟. والجَوابُ أَنّ مُرادَهُ الرُّؤيةُ في الآخِرةِ بِدَليلِ التّعبيرِ بِقَوْلِه «وإذا»، فإنّها تَدُلُّ عَلَى الزّمانِ المُسْتقبَلِ»[٣]. ولَعلّ الأَمْرَ لا يَحتاجُ إِلَى هذه المُحاجّة؛ لِأنّ الرُّؤيةَ عِنْدَ الصّوفيّةِ تكونُ بِعَيْنِ القَلْبِ لا بِالعَيْنِ الشَّحْميّةِ المُتاحةِ لِجُمْلةِ الأَناسيِّ. يقولُ الشّيخُ عَبْدُالغَنيِّ النّابُلسيُّ في معنَى البيتِ

(٣) السّابق، ص٢٠٨.

الثّالِثِ: «الخِطابُ لِلْقَلْبِ في البَيْتِ السّابِقِ، فإنّ القَلْبَ المذكورَ هو الحَيُّ بالحَياةِ الحقيقيّةِ القَديمةِ الأَزَليّةِ الأَبَدِيّةِ، لا بالحَياةِ الطّبيعيّةِ الحادِثةِ الفانيةِ؛ فَإنّهُ ماتَ مِنْها بِقَوْلِه: «فَمُتْ بِهِ صَبًّا»[٤].

وفي هذا المَدْرجِ يُعَلِّلُ الشّاعِرُ طَلَبَهُ فَرْطَ الحُبِّ بِأنَّ «الغَرامَ هو الحَياةُ». فَعِنْدَ الشّاعِرِ أَنّ «المَحَبّةَ الإلهيّةَ» هِيَ الحياةُ الحقيقيّةُ؛ ومَن لم يَظْفَروا بِها مَوْتَى، وإن بَدَوا في أَرْدِيةِ الأَحْياء.

- البَيْتانِ الخامِسُ والسّادسُ، المَدْرجُ الثّاني، أَظْهَرَ الشّاعِرُ فِيهما أنّهُ غدا المُعَلِّمَ لِلْحُبِّ الإلهيّ لِمَن مَضَى ولِمَن يأتي ولِمَن هُوَ موجودٌ مَعَ المتكلِّم. وقد يَقْصِدُ الشّاعِرُ إِلَى القَوْلِ: إنّهُ خَبيرٌ في هذا الشّأنِ، وقد عانَى المَحَبّةَ الإلهيّةَ، وحَصَلَ مِن ذلك عَلَى خُبْرٍ وبَصَرٍ بِالمِقْدارِ الذي يأذَنُ لَهُ أَن يُقدِّمَ الدُّروسَ والعِظاتِ. ويَشِي تَلْقِيبُه بِ«سُلْطانِ العاشِقينَ» بِتأكيدِ هذا المَلْحَظِ، وقَصْدِ أَن يتحدّثَ الوَرَى عن تَجْرِبته.

- في المَدْرَجِ الثّالِثِ، ابْتِداءً مِنَ البيتِ السّابِعِ إِلَى الآخِرِ، يَتحدّثُ الشّاعِرُ عن «وِصالِ الحَبيبِ الإلهيِّ»، وهُنا بُعْدٌ عَميقٌ في التَّجْرِبةِ، واسْتِعْمالٌ لِمَضْمُونٍ صُوفيٍّ أَساسُهُ الأَثَرُ: «لِي مَعَ اللهِ وَقْتٌ لا يَسَعُني فِيهِ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، ولا نَبيٌّ مُرْسَل»[٥].

وحِينَ يَتحدّثُ ابنُ الفارِضِ عَنِ الخُلُوِّ مَعَ الحَبيبِ، وعَنِ السِّرِّ الرّقيقِ

(٤) السّابق، ص٢١٠.

(٥) يُنظَرُ في هذا بالفارسيّةِ: «أحاديث مَثْنوى» الذي جَمَعَه وعَلّقَ عَلَيه بديع الزّمان فُروزانفر، الطّبعة الثّالِثة، مُؤسّسة انتشارات أميركبير، طهران ١٣٦١هـ.ش، ص٣٩. ويذكُرُ جامِعُ الأحاديثِ في شأنِ هذا الأَثَرِ: «ويقولُ مؤلِّفُ اللُّؤلُؤ المَرْصوعِ في شأنِهِ: «يَذْكُرُهُ الصُّوفيّةُ كثيرًا، ولَمْ أَرَ مَنْ نَبّهَ عَلَيهِ، وفيهِ إيماءٌ إِلَى مَقامِ الاسْتِغْراقِ بِاللِّقاء، المُعَبَّرِ عنهُ بِ«المَحْوِ» و«الفَناء».

بينَهما، وإباحةِ الحَبيبِ النَّظْرةَ، يأتي ذلك بِلُغةِ الحُبِّ البَشَريّ؛ الأَمْرُ الذي يُهيِّئُ جُمْهورًا أَوْسَعَ لِلْقَصيدةِ بِسَبَبِ القُرْبِ مِنَ المَألوفِ المُتعارَفِ، وإدْراكِ المَقاصِدِ. فلُغةُ المَحبّةِ الإلهيّةِ عِنْدَ الشّاعِرِ مِن الصِّنفِ الذي يُمكِّنُ مِنَ الفَهْمِ، وهي مَعَ ذلك تنطوي عَلَى قَدْرٍ مِن الرّمزيّةِ الصُّوفيّةِ حِينَ يُعبِّرُ الشّاعِرُ عن أَحْوالِه ومَقاماتِه.

وأَبْرَزُ ما يَميزُ تَناوُلَ ابْنِ الفارِضِ لِفِكْرةِ «الحَبيبِ الإلهيِّ»، هذا التّمييزُ الواضِحُ بَيْنَ الذّاتِ والمَوْضوعِ؛ أَيْ: بَيْنَ الشّاعِرِ المُحِبِّ والحَبيبِ الإلهيِّ تعالَى. ففي هذا التّناوُلِ يَبْرُزُ مَفْهُومُ العَبْدِ المُحتاجِ إِلَى فَرْطِ حُبِّ الحَبيبِ، وذلك الحَبيبِ المُتَعالِي المُتمَنِّعِ.

وفي هذا المَدْرَجِ، يُقدِّمُ الشّاعِرُ صُورةً عَظِيمةً لِجَمالِ الحَبيبِ الإلهيِّ، ويُبَيِّنُ أَنّهُ ظَفِرَ بِكَنْزِ «الحُبِّ الإلهيِّ»، وعاشَ حالَ «البَسْطِ» الذي صارَ فيه مَعْرُوفًا بَيْنَ الخَلْقِ، بَعْدَ أَن كانَ مَجْهُولًا. ويتحدّثُ شارِحُ الدِّيوانِ رَشيدُ بنُ غالِب عن دَهْشةِ الوِصالِ هذه فيقُولُ: «وقَوْلُه: «فَدُهِشْتُ» عَلَى صِيغةِ البِناءِ لِلْمَجْهولِ مِنَ الدَّهْشةِ، وهِيَ الحَيْرةُ التي تُوجِبُ اخْتِلاطَ أَسْبابِ الشُّعُور. وقَوْلُه: «بَيْنَ جَمالِه وجَلالِهِ»، أي: وَقَعَتْ لِيَ الدَّهْشَةُ بَيْنَ وَصْفَيْنِ مِن أَوْصافِ الكَمالِ، وهُما الجَمالُ والجَلالُ والصُّدودُ والوِصالُ والانقطاعُ والاتّصالُ، فأَنْظُرُ تارةً إِلَى وَصْفِ الجَلالِ فأَرْتَدِعُ، وأَميلُ إِلَى وَصْفِ الجَمالِ آوِنَةً فعَلَيْهِ أَجْتَمِعُ. وقَوْلُه: «وغدا لِسانُ الحالِ عَنِّي مُخْبِرًا»، أَخْبَرَ بِأَنّ لِسانَ الحالِ عنهُ أَخْبَرَ لا لِسانَ المَقالِ؛ لِأَنّ الدَّهْشةَ بَيْنَ الجَمالِ والجَلالِ تَمْحُو المَقالَ وتُثْبِتُ الحالَ فيَكُونُ السِّرُّ جَهْرًا ويَصِيرُ قَطْرُ الدَّمْعِ نَهْرًا»[٦].

(٦) شَرْحُ دِيوانِ ابْنِ الفارض، ج١، ص٢١١.

في البَيْتَيْنِ الأَخِيرَيْنِ مِنَ القَصِيدةِ – ومِنَ المَدْرَجِ الثّالِثِ –:

**فأَدِرْ لِحاظَكَ في مَحاسِنِ وَجْهِهِ تَلْقَى جَمِيعَ الحُسْنِ فِيهِ مُصَوَّرا**

**لَوْ أَنّ كُلَّ الحُسْنِ يَكْمُلُ صُورةً ورَآهُ كانَ مُهَلِّلًا ومُكَبِّرا**

يُصَوِّرُ الشّاعِرُ عَظَمةَ «جَمالِ الحَبيبِ الإلهيِّ»، الخالِقِ العَظيم. وفي التَّقْليدِ الإسلاميِّ في الشّعْرِ، يُرَكِّزُ الشُّعَراءُ عَلَى جَمالِ الحَقِّ تَعالَى، وجَمالِ النَّبيِّ مُحمَّدٍ عَلَيْهِ الصّلاةُ والسّلامُ. ونَرَى أَنّ مَدْعاةَ ذلك في المَقامِ الأَوّلِ تَعْليلُ فَرْطِ الحُبِّ الذي يَعِيشُ فيه الشّاعِرُ. ويَلْفِتُ الانْتِباهَ اسْتِعْمالُ الشّاعِرِ في البَيْتَيْنِ تَعْبيرَ «جَمِيعِ الحُسْنِ» المُصَوَّرِ في مَحاسِنِ وَجْهِ الحقِّ، و«كُلِّ الحُسْنِ» الذي لَوْ تُصوِّرَ مُجْتَمِعًا في صُورةٍ لَكانَ قائلًا: لا إلهَ إلّا اللهُ، اللهُ أكبَرُ؛ مِن تعجُّبِه مِن حُسْنِه وكَمالِه. ويقولُ شارحُ الدِّيوانِ في شَأنِ هذا البَيْتِ الأَخِيرِ: «وفي البَيْتِ مِنَ المُبالَغَةِ واللّطافةِ ما لا يَخْفَى. وما أَحْسَنَ قَوْلَ الشَّيْخِ بُرْهانِ الدِّينِ القِيراطيِّ رَحِمَه اللهُ تعالى حَيْثُ قالَ:

**ذُكِرَتْ فصَغَّرَها العَذُولُ جَهالةً حَتّى بَدَتْ لِلنّاظِرَيْنِ فكَبَّرا»!**[٧]

ومَجالُ القَوْلِ واسِعٌ، لكنّ السّائرَ إِلَى غايةٍ يَعْجِزُ عن الإبطاءِ والرَّيْث. ومُختَصَرُ القَوْلِ في هذا القَدْرِ المُتاحِ أَنّ شِعْرَ العَرَبِ قَدّمَ الجَمَّ الغَفيرَ في فَضاءِ صُورةِ «الحَبيبِ الإلهيِّ»، وتنوّعَتْ فيهِ طَرائقُ التّناوُل، وبَرّزَ ابْنُ الفارِضِ بَيْنَ فُرْسانِ الحَلْبةِ. ولَعلّ فِيما قَدَّمْنا قَطْرةً مِن الغَدِيرِ، أو حَفْنةً مِنَ البَيْدَرِ الكبير.

## – الحَبِيبُ الإلهيُّ عِنْدَ جَلالِ الدِّينِ الرُّوميّ في الأَدَبِ الفارسيّ:

لَسْنا نَدّعي غَيْرَ الحقيقةِ حِينَ نقولُ: إنّ جَلالَ الدِّينِ الرُّوميَّ واحِدَةٌ مِن

(٧) السّابق، ج١، ص٢١٢-٢١٣.

سَحائبِ الحَقِّ التي نَما اللُّؤلُؤُ النَّيْسانيُّ مِن تَسْكابِها(*) في بِحارِ الأقاليمِ المُختلفة. وقد تَضاعَفَ الاهتمامُ العالَمِيُّ والعَرَبيُّ بهذه الشّخصيّةِ المُبْدِعةِ في العَقْدَيْنِ الأَخِيرَيْن. واللّافِتُ لِلنّظَرِ أَنّ الاهتمامَ التُّرْكِيَّ والفارسِيَّ والعَرَبيَّ بها جاءَ مَسْبُوقًا باهتمام غَرْبيٍّ واضِحِ المَعالِمِ.

وكانَ الرُّوميُّ مُحْتَرِقًا في أَتُّونِ(**) مَحَبّةِ «الحَبيبِ الإلهيِّ»، وكان يَرَى نَفْسَهُ مَجْلًى لِنُورِ الحَقِّ تعالى:

**يَطْمَعُ عُمْيُ القُلُوبِ بِعَطايا الخَلْقِ؛ لِما استبدَّ بِهِم مِن جَهْل**
**وأَنا أَطْمعُ بِعَطاياكَ؛ لِأَنّ كُلَّ صَعْبٍ عِنْدَكَ سَهْل**
**إنّ خِدْمَتي طاعةٌ للهِ، سُبْحانَه، وثَناءٌ عَلَى آلائِه**
**لِكَيْ لا تَحْسَبَ أَنّ الحَقَّ بَعِيدٌ عَنِّي**
**فَحَمْلِقْ، وانْظُرْ إِلَيَّ نَظَرًا قَوِيًّا مُرَكَّزًا**
**لِكَيْ تَرَى نُورَ الحَقِّ في البَشَر**

وقد تَجَلَّى «الحَبيبُ الإلهيُّ» لِجَلالِ الدِّينِ في صُورةِ شَيْخِه الذي فارَقَه عَلَى حِينِ غِرّةٍ، شمْسِ الدِّينِ التَّبْريزيّ [ت ٦٤٥هـ]. وفي هذا المعنَى يقولُ: «اعْلَمْ أَنّ الشَّيْخَ يكونُ مُتَخَلِّقًا بِكُلِّ صِفاتِ الحَقِّ مَعَ أنّ الشّيخَ يَظْهَرُ في صُورةِ البَشَر».

ونَظَمَ جَلالُ الدِّينِ في الشّيخِ المُفارِقِ غَزَلِيّاتٍ صُوفِيّةً سالِبَةً لِلْعُقولِ، يَقْرُبُ عَدَدُها مِنْ ثلاثةِ آلافٍ وخَمْسِمئةٍ غَزَليّةٍ في ما يَقْرُبُ مِنْ ثَلاثةٍ وأربعينَ أَلْفَ بَيْت.

---

(*) اسْتَعْمَلْنا هنا إشارةً إِلَى تَصَوُّرٍ في الآدابِ الإسلاميّةِ الشَّرْقيّةِ يَذْهَبُ إِلَى أَنّ اللُّؤْلُؤَةَ هي قَطْرةٌ مِن مَطَرِ شَهْرِ نَيْسانَ صادَفَ أَن وقَعَتْ في مَحارة.

(**) الأَتُونُ - وتُشدّد تاؤه -: الموقد الكبير. [المجلة].

وغَزَلِيّاتُ جَلالِ الدِّينِ مِنَ الطِّرازِ الرّفيعِ، وهي في جُمْلَتِها تُصَوِّرُ هُيامَ رُوحِهِ بِمَعْشُوقِه شَمْسِ الدِّينِ التَّبْريزيّ، الذي مَلَكَ عَلَيْهِ أَقْطارَ نَفْسِه، واسْتَبَدَّ حُبُّه به حتّى ما عادَ يَرَى سِواهُ ولا يُحِسُّ ولا يُفكِّرُ إلّا به. وتُقدِّمُ هذه الغَزَليّاتُ فَلْسفةً رائعةً لِفِكْرةِ الحُبِّ الإلهيّ، فَلْسفةً لا يَجِدُها المَرْءُ إلّا في حاناتِ الوَلَهِ والهُيامِ عِنْدَ قُلُوبٍ شاعِرَةٍ سَما بها احْتِراقُها إِلَى آفاقِ عالَمٍ لا أَبْهَى ولا أَعْذَبَ؛ فلَمْ تَنْطِقْ عن هَوًى، ولم تَبُحْ إلّا بإلْهاماتٍ مِن قَيُّومِ السّماواتِ والأَرْضِ، واهِبِ الإناثِ والذُّكُورِ مِنْ بَناتِ الأَرْحامِ والصُّدُور.

ويَسْتَلْزِمُ الأَمْرُ تَأكِيدَ أَنّ حَدِيثَ الرّوميِّ عَنْ شَيخِه شَمْسِ الدِّينِ هو عَيْنُ حَدِيثِه عَنِ الحَقّ تَعالَى؛ ومِن هنا «الحَبِيبُ الإلهيُّ» عِنْدَ جَلالِ الدِّين هُوَ شَمْسُ تَبْريزَ الذي تَخلّقَ في رَأيِه بِأَخْلاقِ الرّحمن، كما جاءَ في الأَثَر. وفيما يأتي يَجِدُ القارئُ الكريمُ مِصْداقَ ذلك في هذه الغَزَلِيّةِ التي يَخْتِمُها الشّاعِرُ بِتَأكِيدِ أَنّ المُرادَ مِنَ «الحَبِيبِ الإلهيِّ» عِنْدَه هو الحَقُّ تعالى:

**طالَما أَنّ طَيْفَ الحَبِيبِ مَعَنا**
**فَإنّ العُمُرَ كُلَّهُ عِنْدَنا مُتْعةٌ وبَهْجة**
**في المَكانِ الذي يَلْتقي فيهِ الأَحِبّةُ**
**يكونُ صَحْنُ البَيْتِ، واللهِ، صَحْراءَ مُترامِيةَ الأَطْراف**
**وفي المَكانِ الذي يَظْهَرُ فيهِ مُرادُ القَلْب**
**تكونُ شَوكةٌ واحِدَةٌ خَيْرًا مِنْ أَلْفِ نَخْلة**
**حِينَ نَنامُ عَلَى قارعةِ طَرِيقِ الحَبِيب**
**تكونُ وِسادتُنا ولِحافُنا الثُّرَيا**
**حِينَ نَلْتَفُّ بِرَأسِ ذُؤابةِ الحَبِيب**
**في لَيْلَةِ القَدْرِ، يكونُ كُلُّ القَدْرِ لَنا**

حِـــــينَ يَـــــتَلَألأُ انعكـــــاسُ جَمالِـــــهِ
تكـــــونُ الجِبـــــالُ والأَرْضُ حَريـــــرًا ودِيباجًـــــا
حِـــــينَ نَطْلُـــــبُ مِـــــنَ النّســـــيمِ رِيحَـــــهُ
يكـــونُ فـــي النّســـيمِ أَصْـــداءُ الرّبـــابِ والسُّـــرْناي(*)
حِـــــينَ نَكْتُـــــبُ اسْـــــمَهُ عَلَـــــى التُّـــــراب
تكـــــونُ كُـــــلُّ ذَرّةِ تُـــــرابٍ حُوريّـــــةً حَـــــوْراءَ
نَقْـــــرَأُ مِنْـــــهُ تَعْويـــــذةً عَلَـــــى النّـــــار
فتَغْـــدُو، بِسَـــبَبِها، النّـــارُ المُتّقِـــدَةُ مـــاءً يُبَـــرِّدُ بـــه
ولِمـــاذا أَسْـــرُدُ حِكايـــةً طَوِيلـــةً؟ حِـــينَ نـــذكُرُ
اسْـــمَهُ عَلَـــى العَـــدَمِ يَـــزْدادُ العَـــدَمُ وجُـــودًا
والنُّكتَـــــةُ التـــــي فِيهـــــا عِشْـــــقُهُ
أكثَـــرُ امْـــتِلاءً بِاللُّـــبِّ مِـــنْ أَلْـــفِ جَـــوْزة
واللّحظـــةُ التـــي أَظْهَـــرَ فيهـــا العِشْـــقُ وَجْهَـــهُ
تَـــوارَتْ فِيهـــا الأَشْـــياءُ كُلُّهـــا مِـــنْ ســـاحةِ الوُجـــود
فالصَّـــــمْتَ! لِأَنّ الخَـــــتْمَ قَـــــدِ اكتمَـــــلَ
والمُـــــرادَ كُلَّـــــهُ هـــــو الحَـــــقُّ تعـــــالَى(٨)

ويُفْهَمُ مِنَ الغَزَليّةِ أَنّ «الحَبيبَ الإلهيَّ» عِنْدَ الرّوميِّ هو المَبْعَثُ لِكُلِّ سَعادة. وتُشْبِهُ حالُ الاغْتِباطِ التي يَحْياها الشّاعِرُ في وِصالِ الحَبيبِ حالَ ما

(*) آلةٌ موسيقيّةٌ مِن آلاتِ النَّفْخ.

(٨) يَدُ العِشْق، مُختاراتٌ مِن ديوانِ شَمْسِ تَبريزَ لِجلالِ الدِّينِ الرّوميِّ، ترجمة عيسى علي العاكوب، دار نينوى في دمشق ١٤٣٦هـ، المجموعة الأولى ص١٢٠-١٢١.

أشارَ إِلَيْهِ قَوْلُ السَّيِّدِ المَسيحِ – عَلَيْهِ السّلامُ –: «إِذا كانَ اللهُ مَعَنا، فَمَنْ عَلَيْنا؟».

و«الحَبيبُ الإلهيُّ» عِنْدَ الرُّوميِّ لا يَغيبُ عَنِ الفِكْرِ والخَيالِ واللِّسان، وحالُه في ذلك حالُ العارِفةِ الرّائعةِ عائشةَ الباعُونيّة (ت ٩٢٢هـ) التي تُرَدِّد في لَحْظةِ وِصال:

**حَبيبي أَنْتَ مِن قَلْبي قَريبُ وعَنْ سِرِّي جَمالُكَ لا يَغِيبُ**

**خَلَعْتَ الحُسْنَ في خِلَعِ التَّجَلِّي فأَبْدتَّ الوِصالَ ولا رَقِيبُ**

فَ«تَأبيدُ الوِصالِ» هذا، الذي تَتحدّثُ عَنْهُ الشّاعِرةُ، هُوَ الذي ظَلَّ جَلالُ الدِّينِ دائمًا يَطْلُبُهُ في جُمْلةِ شِعْرِه. ولا يَتّسِعُ مَجالُ القَوْلِ المَأذُونُ بِه هنا لِلْإفاضةِ في عَرْضِ الشّواهِدِ والأَدِلّة. ولَعَلّ عِطْرَ الرَّبيعِ يُخْتَصَرُ بِبَعْضِ العِطْر، ولَعلّ البَيْتَ الواحِدَ يَنُوءُ بِحَمْلِ مَعاني الآلافِ مِنَ الأَبْيات، كهذا البَيْتِ الذي يُعْلِنُ فيه جَلالُ الدّينِ بِالفارسيّة:

**ساعدِ شَهْ مَسْكَنِ ايْنْ بازْ بادْ**

**تا أَبَدْ بَرْ خَلْقْ ايْنْ دَرْ بازْ باد**

ومَعْناهُ:

**اجْعَلْ، يا رَبِّي، ساعِدَ المَلِكِ المَسْكَنَ لِهذا البازيِّ**

**واجْعَلْ هذا البابَ مَفْتُوحًا لِلْخَلْقِ إِلَى الأَبَد**

ويَسْتَعْمِلُ الشّاعِرُ في هذا البَيْتِ الاسْتِعارةَ التّمثيليّةَ، مُشِيرًا إِلَى أَنّ الرُّوحَ المُحِبَّ لِحَضْرةِ الحَقِّ تعالى شَبيهٌ بِالبازيِّ الذي جَرَتْ عادةُ المُلُوكِ القُدَماءِ عَلَى أَن يُدَرِّبُوه عَلَى أَنْ يَجْثُمَ عَلَى ساعِدِ المَلِك، وفي أَثْناءِ الصَّيْدِ يُطِيرُه المَلِكُ مِنْ عَلَى ساعِدِه، فإذا ما صاحَ به وهو في الأَعالي عادَ سَريعًا لِيَجْثُمَ عَلَى ساعِدِ المَلِك. وفي جُمْلَةِ معنَى البَيْتِ، يَدْعُو جَلالُ الدِّينِ

المَوْلَى سُبْحانَه لِأَنْ يَجْعَلَ ساعِدَ المَلِيكِ الإلهيِّ المَسْكَنَ والمُستقَرَّ لِبازيِّ رُوحِه، وأَنْ يُبْقِيَ بابَ العِنايةِ الإلهيّةِ مفتوحًا عَلَى الدَّوامِ أَمامَ الخَلْق.

**- الحَبِيبُ الإلهيُّ عِنْدَ نيكلسون في الأَدَبِ الإنكليزيِّ:**

رِينُولد أَلِين نيكلسون Renold Allen Nicholson (ت ١٩٤٥م) مُسْتَشْرِقٌ إنكليزيٌّ، عالِمٌ بِالتّصَوُّفِ الإسلاميِّ. تلقّى تعليمَه في كيمبردج وغَيْرِها. ودَرَسَ العَرَبيّةَ والفارسيّةَ ودَرّسَهما. وأَسْهَمَ في تَحْقِيقِ عَدَدٍ مِنَ الآثارِ الصّوفيّةِ النّفيسة. وأَنفقَ شَطْرًا مِن سِنِي حَياتِه في تحقيقِ الأَصْلِ الفارسيِّ لِمَثْنَويِّ مَولانا جَلالِ الدّينِ الرّوميِّ، ثمّ تَرْجَمَهُ إِلَى الإنكليزيّة. ولَهُ فَضْلٌ كبيرٌ في تَعْرِيفِ العالَمِ الغَرْبيّ بِالفِكْرِ الصُّوفيِّ عِنْدَ الرّوميِّ. ويَبْدُو أَنّهُ مَرَّ بِمَرْحَلةٍ مِن رَفْضِ الإيمانِ، لكنّ الأَمْرَ انقلَبَ تمامًا بَعْدَ اطّلاعِهِ عَلَى التّصوّفِ الإسلاميّ وتَصَوّفِ جَلالِ الدِّينِ الرُّوميّ. وفي ذلك يقولُ عنه تِلْمِيذُه أرثر جون أربري: «نادِرًا ما تحدّثَ عَنْ مُعْتَقداتِه الشَّخْصيّةِ، وعَلَى امْتِدادِ خَمْسةٍ وعِشرينَ عامًا مِنَ الصَّداقةِ الحَمِيمةِ تَعَلَّمْتُ القَلِيلَ عن تَشكِيلِه الرُّوحِيِّ. لكنّ الانطباعَ الذي كَوّنتُه عَنْهُ تَمَثّلَ في أَنّهُ هو أَيضًا فَقَدَ إيمانَهُ وهو شابٌّ، ثمّ استعادَه مِن خِلالِ صِلَتِه الفِكْريّةِ الحَميمةِ بِصُوفيّةِ الإِسلام»[٩].

ويذكُرُ أَربري أَنّ أُسْتاذَه نيكلسون «نَظَمَ في شَيخُوختِه قَصِيدةً كَشَفَ فيها لِأَوّلِ مَرّةٍ فِكَرَهُ الباطِنيّةَ. وقد تَأثّرَتْ هذه الفِكَرُ بِوُضوحٍ تَأثُّرًا عَمِيقًا بِدِراساتِه المَدِيدةِ لِلرُّوميِّ»[١٠].

---

(٩) Mystical Poems of Rumi 2, Jalāl-Dīn Rumi, Translated by A.J. Arberry, The University of Chicago Press, 1991, p.x.

(١٠) السّابق، p.xi.

وابْتِغاءَ بَيانِ صُورةِ «الحَبِيبِ الإلهيِّ» عِنْدَ نِيكلسُون أُثْبِتُ لِلْقارئ الكريمِ تَرْجَمتي إِيّاها إِلَى العربيّة:

**عَمِيقًا في قُلُوبِنا، يَسْطَعُ نُورُ السَّماواتِ**

**عَلَى بَحْرٍ صامِتٍ لا شاطئَ لَهُ.**

**آهِ، سُعَداءُ أُولئكَ الذينَ وَجَدُوهُ في التَّخَلِّي**

**عَنْ صُوَرِ كُلِّ ما يُبَجِّلُه النّاسُ.**

**إنّ عُمْيَ العُيُونِ، الذين يُشْغَفُونَ فقط بِظِلالِ الأَشْياء**

**في الآخِرِ فقط يَلْعَنُونَ الفَخَّ القاتِلَ الذي نُصِبَ لَهُم**

**مِثْلَ هارُوتَ وماروتَ، ذَيْنِكَ المَلَكَيْنِ**

**اللّذَيْنِ عَدّا نَفْسَيْهما أَصْفَى الأَصْفِياء**

**إنّ جَهْلَنا وحُبَّنا أَنْفُسَنا وتَفاخُرَنا الرَّذْلَ**

**تُدَمِّرُ تَناغُمَ الجُزْءِ مَعَ الكُلِّ.**

**وعَبَثًا نَطْلُبُ بِشَهَواتٍ لَمْ نَقْتُلْها**

**مُشاهَدَةَ الذّاتِ السَّرْمَدِيّةِ الواحِدَة.**

**الحُبُّ، الحُبُّ وَحْدَهُ يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَقْتُلَ ما بَدا مَيْتًا،**

**حَيّةَ العاطِفَةِ المُتجمِّدةَ. الحُبُّ وَحْدَه،**

**بِالدُّعاءِ الطّافِحِ بِالدُّموعِ والاشْتِياقِ المُلْتَهِبِ المُغَذَّى،**

**يَكْشِفُ لَنا مَعْرِفةً ما عَرَفَتْها المَدارِسُ.**

**مُحِبُّو اللهِ يَتعلَّمونَ مِنْهُ الطُّرُقَ الخَفِيّةَ**

**لِلْعِنايةِ الإلهيّةِ، المُخطَّطَ العامَّ.**

**ولِأَنّ هؤلاءِ يَحْيَوْنَ بِالحَضْرة، لا يَفْتَؤونَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ**

مَنْ أَوْجَدَ آلافَ عَوالِمِ الزّمانِ مِنْ أَجْلِ الإِنْسان.

أَمّا الشَّرُّ فَما عَرَفُوهُ؛ لِأَنَّهُ فِيهِ [تعالَى] لا يُوجَدُ شَرٌّ

ومَعَ ذلكَ بِغَيْرِ شَرٍّ، كَيْفَ ينبغي أَن يُعْرَفَ الخَيْرُ؟

يُجيبُ الحُبُّ: «اسْتَشْعِرْني، افْنَ فِيَّ، كُنْ واحِدًا مَعِي؛

فَحَيْثُ أُوجَدُ، يَنْهَضُ العَدَمُ لِيَتخلَّلَ المَكانَ».

هُناكَ دَرَجاتٌ لِنُورِ السَّماءِ في الأَرْواح؛

وقد أَظْهَرَ الأَنْبِياءُ والأَوْلِياءُ الطّريقَ الذي مَشَوا فِيهِ،

نِقــاطُ الانْطِــلاقِ والمَحَطّــاتُ، ومُحَــدِّداتُ المَســافةِ

كُلُّها تَقُودُ إِلَى الغايةِ الوَحِيدة، في اللهِ.

ولَنْ يَدَعَ الحُبُّ عَبِيدَهُ المُخْلِصِينَ يَتْعَبُونَ،

فالجَمالُ الخالِدُ يَجْذِبُهم بِاسْتِمْرار

مِنْ أُبَّهةٍ إِلَى أُبّهةٍ يَنْجَذِبُونَ مُقْتَربينَ

في كُلِّ انْتِقالةٍ ومُحِبِّينَ أَن يُجْذَبُوا.

حِينَ تَسْطَعُ شَمْسُ الحَقِّ، تَتعثَّرُ الكَلِماتُ ولا تَقُولُ شَيْئًا؛

وحِينئذٍ تَمامًا اسْمَعُوا الكَلامَ داخِلَ قُلُوبِكم. وَداعًا.

ما أَتَى به نِيكلسون في هذه القَصِيدةِ خُلاصَةٌ مُصَفّاةٌ في شَـأنِ «الحَبِيـبِ الإلهيِّ». والظّاهِرُ تَمامًا أَنّ التّصَوُّفَ الإسـلامِيَّ عِنْـدَ جَـلالِ الـدِّينِ الرّومـيِّ، الـذي أَمْضَـى نيكلسـون شَـطْرًا كبيـرًا مِـنْ حَياتِـه فـي التّعامُـلِ مَعَـه تَحْقِيقًـا وتَرْجَمةً، قد أَثّرَ في تَفْكيرِه وشَغَلَ أَدَواتِ إِدْراكِه واسْتَبدّتْ بِهِ مَعانِيهِ الرُّوحيّةُ وطَريقةُ تناوُلِهِ عالَمَيِ الغَيْبِ والشَّهادة، حتّى كأَنّهُ غدا المُمَثِّـلَ لِمَـنِ اسْـتَفْهَمَ جلالَ الدِّين كيفَ يَلْتَمِسُ مَعانيَ القُرْآنِ فقالَ لَهُ:

**الْتَمِسْ مَعْنَى القُرْآنِ مِنَ القُرْآنِ نَفْسِه،**
**أَو مِن رَجُلٍ أَضْرَمَ النّارَ في هَوَسِه وهَواه**
**واخْتَلَطَ بِالقُرْآنِ حَتّى صارَ عَيْنُ رُوحِه قُرْآنًا**
**فَإِنّ الزَّيْتَ الذي خَدَمَ الوَرْدَ**
**سَواءٌ أَشَمَمْتَ مِنْهُ الزَّيْتَ أم الوَرْدَ!**

و«نُورُ السَّماواتِ» الذي أَشارَ إِلَيْهِ نيكلسون في مَطْلَعِ القَصِيدة وسَمّاهُ في آخِرِها «شَمْسَ الحَقّ» أو «الحَقَّ»، هُوَ اللهُ تعالى، «الحَبِيبُ الإلهيُّ»، هُوَ عَيْنُ ما جاءَ في الآيةِ (٣٥) مِنْ سُورةِ النُّورِ في القُرْآنِ الكريم: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. وقد أَكّدَ السَّيِّدُ أربري هذا حِينَ قالَ: «الحَقُّ، إِذَنْ، نُورٌ – نُورٌ يُشْرِقُ في القَلْبِ. وما النُّورُ؟ تَبْدُو الإجابةُ مُقَدَّمةً في تِلْكَ الآيةِ الكَرِيمةِ في القُرْآنِ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ...﴾»[١١].

وقد فَصّلَتِ القَصيدةُ في طَبيعةِ هذا «النُّورِ»، الذي يَسْطَعُ في أَعْماقِ قُلُوبِنا عَلَى بَحْرٍ غارِقٍ في الصَّمْتِ ولا شاطئَ لَهُ، وبَيَّنَتْ كَمْ هُمْ سُعَداءُ أولئكَ الذين وَجَدُوه في تَصْفِيةِ القُلُوبِ مِن كُلِّ ما سِوَى الله. ويُبَيِّنُ الشّاعِرُ عِظَمَ البَلِيّةِ عِنْدَ مَنِ ابْتُلوا مِنَ النّاسِ بِـ«الأَعْيُنِ العُمْيِ» التي لا تُشْغَفُ إلّا بِظِلالِ الأشياءِ وظواهِرِها، التي بَعْدَ فَواتِ الأَوانِ تَلْعَنُ فَخَّها القاتِلَ الذي وَقَعَتْ فيه، فكانَتْ هذه الأَعْيُنُ، أو أَصْحابُها، مِثْلَ المَلَكَيْنِ هاروتَ وماروتَ، اللّذَيْنِ عَدّا نَفْسَيْهما أَطْهَرَ الطّاهِرِينَ.

ثُمّ تَتحدّثُ القَصِيدةُ عن الحُجُبِ التي تَمْنَعُ الإنسانَ مِنْ رُؤيةِ «الحَبِيبِ الإلهيِّ»، ويُسَمِّي الشّاعِرُ مِنها الجَهْلَ وحُبَّ النَّفْسِ والتّفاخُرَ الفارِغَ. ويقولُ

(١١) نفسه.

إنّ هذه هي التي تُدَمِّرُ تَناغُمَ الجُزْءِ والكُلِّ، أو الإنسانِ والحَقِّ تعالى. ويَتقدَّمُ الشّاعِرُ أكثَرَ فيقولُ: إنّنا بِغَيْرِ طائلٍ نَطْلُبُ مُشاهَدةَ الحَبيبِ، وما تَزالُ شَهَواتُنا ونُفُوسُنا الحَيَوانيّةُ مُفْعَمةً بِالحَياةِ لَمّا نَقْتُلْها.

وبَعْدَ ذلك يُقدِّمُ الشّاعِرُ لِلْقارئ الإنكليزيِّ، والغَرْبيِّ عامّةً، الأداةَ لِإِحْياءِ القُلُوبِ المَيْتةِ وإِعْمارِها بِالمَحَبّةِ الإلهيّةِ، ويُؤكِّدُ أَنّ «الحُبَّ» وَحْدَه يُمْكِنُ أَن يَقْتُلَ ما بَدا مَيْتًا تَمامًا، أي: العاطِفةَ الباردَةَ الشّبيهةَ بِالحَيّةِ التي لَفَّتْها الثُّلُوجُ فَوْقَ الجِبالِ والهِضابِ في صَحاري آسيا الوُسْطَى. ويَتقدَّمُ في البَيانِ أكثَرَ حَيْثُ يَقُولُ: إنّ «الحُبَّ» وَحْدَهُ بِفَضْلِ الدُّعاءِ الباكي والتَّشَوُّقِ المُحْرِقِ الذي يُنَمَّى ويُغَذَّى، يَكْشِفُ لِلْإنسانِ مَعْرِفةً عِرْفانيّةً ما عَرَفَتْها المَدارِسُ والكُلِّيّاتُ والجامعاتُ.

ويُعلِّمُ السَّيِّدُ نيكلسون القارئَ الغَرْبيَّ أنّ مُحِبِّي الله سُبْحانَهُ يَتعلَّمُونَ مِنهُ الطُّرُقَ الخَفِيّةَ لِعِنايةِ الله، أَي: المُخطَّطَ العامَّ أو خارِطَةَ الطّريقِ، كما اصْطَلَحَ أَهْلُ زَمانِنا. ولِأَنّ هؤلاءِ يَحْيَوْنَ في حَضْرةِ اللهِ، يَظَلُّون يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِه ويُعَظِّمونَ أَمْرَ ذلك «الحَبيبِ الإلهيِّ» العظيم الذي أَبْدَعَ مِن أَجْلِ الإنسانِ آلافَ عَوالِمِ الزّمان. فأَمامَ المُحِبِّ الإلهيِّ في حُبِّهِ للهِ آلافُ أَنْواعِ الوَقْتِ التي يَقْضيها مَعَ حُضورِ الحَبيبِ في قَلْبِه.

ويَعْرِضُ الشّاعِرُ لِشَيءٍ مِن خاصِّيّاتِ المُحِبِّينَ الإلهِيِّينَ، فيَذْكُرُ أنّهم ما عَرَفُوا الشّرَّ أَبَدًا؛ لِأَنّهُ في حَضْرةِ اللهِ لا وُجُودَ لِشَرّ؛ ومَعَ ذلك لا بُدَّ مِن وُجُودِ الشّرِّ ابْتِغاءَ أَن يُعْرَفَ الخَيْرُ. ويُبَيِّنُ الشّاعِرُ أَنّ «الحُبَّ» يَقُولُ لِطالِبِ الحُبِّ بِلِسانِ الحال: «اسْتَشْعِرْ عَظَمتي، وأَفْنِ نَفْسَكَ فِيَّ، فَحَيْثُ أَكُونُ لا وُجُودَ لِسِوايَ، فَما ثَمَّ عَلَى الحقيقةِ إلّا اللهُ؛ فلا بُدّ مِنْ إفْناءِ المُحِبِّ نَفْسَه في

حَضْرةِ الله، وإبْقاءِ اللهِ وَحْدَه.

ثُمّ يُبَيِّنُ الشّاعِرُ الإنكليزيُّ أَنّ «نُورَ السَّماواتِ»، أو الحَبيبَ الإلهيَّ، لَهُ دَرَجاتٌ في الأَرْواحِ المُحِبّة، وقد بَيّنَ الأَنْبياءُ والأَوْلِياءُ الطَّرِيقَ الذي سَلَكُوهُ إِلَى «الحَبيبِ الإِلهيِّ»؛ ونِقاطُ الانْطِلاقِ فِيهِ ومَحَطّاتُه وعَلاماتُ تَقْدِيرِ المَسافةِ والغاياتُ والمَقاصِدُ كُلُّها تُفْضِي إِلَى الغايةِ الوَحِيدةِ في حَضْرةِ الله.

ثُمّ يَعُودُ الشّاعِرُ المُعَلِّمُ لِ «حُبِّ اللهِ» إِلَى تأكِيدِ فِكْرةِ أَنّ «الحُبَّ»، أو «الحَبيبَ الإلهيَّ»، لا يَدَعُ عِبادَهُ المُؤمِنِينَ يَتْعَبُونَ؛ لِأنّ الجَمالَ السَّرْمَدِيَّ يَجْذِبُهم عَلَى الدَّوامِ مِنْ بَهاءٍ إِلَى بَهاءٍ مُقْتَرِبِينَ أكثَرَ في كُلِّ دَرَجةٍ وتَوّاقِينَ إِلَى الجَذْبِ المُتواصِلِ.

وعَلَى عادةِ الشّيخِ العارِفِ جَلالِ الدِّين في خَتْمِ غَزَلِيّاتِه في مُعْظَمِ الأَحْيانِ بِتَعْبيرِ «خامُوشى» الفارسيِّ الذي يَعْني «الصَّمْتَ»، يَخْتَتِمُ نيكلسون قَصِيدتَه بِشَيءٍ مِنْ هذا القَبيلِ:

**حِينَ تَسْطَعُ الحَقِيقةُ، تَعْجِزُ الكَلِماتُ ولا تَقُولُ شَيْئًا**

**وحِينَئذٍ تَمامًا اسْمَعُوا الكلامَ داخِلَ قُلُوبِكم. وَداعًا**

هكذا، إِذَنْ، بَدَتْ صُورةُ «الحَبيبِ الإلهيِّ» نُورِ السَّماواتِ في مِرْآةِ السَّيِّدِ رينولد أَلِين نيكلسون، هُوَ تَمامًا «نُورُ السّماواتِ» الذي حَدّثَنا عَنْهُ لِسانُ القُرْآنِ بِأَصْفَى وأَوْضَحِ وأَدَقِّ بَيانٍ، في الآيةِ (٣٥) مِن السُّورةِ التي سُمِّيَتْ بِهذا الاسْم. هِيَ حَقًّا صُورةُ «الحَبيبِ الإلهيِّ» عِنْدَ صُوفيّةِ المُسْلِمينَ، وإن يَكُنْ قد رَسَمَ مَلامِحَها قَلَمٌ إنكليزيٌّ.

وحَقِيقةُ ما يُمْكِنُ تَبَيُّنُه مِن وَحْدَةٍ في رَسْمِ صُورةِ «الحَبيبِ الإلهيِّ» بَيْنَ هؤلاءِ الصُّوفيّةِ الثّلاثةِ عَلَى تَباعُدِ بُلْدانِهم وأَزْمانِهم، تَسْمَحُ لَنا أَن نَقْتَبِسَ شَيْئًا

مِمّا قالَهُ المُحقِّقُ الإيرانيُّ الأستاذ مُحَمّد شَفيعي كَدْكَني في شأنِ رُؤيةِ شَمْسِ تَبْريزَ جَلالَ الدِّينِ الرُّوميَّ: «إنّ الوَحْدَةَ الرُّوحانيّةَ التي تُوجَدُ بَيْنَ رِجالِ اللهِ إنّما يفْهَمُها بِصُعُوبةٍ الأَشْخاصُ البَعِيدونَ عن هذه التَّجْربةِ المَعْنَويّة. وحِينَ يَقُولُ شَمْسٌ: «أُريدُ شَخْصًا مِنْ جِنْسي أَجْعَلُهُ قِبْلةً لي (١/ ٢١٩)، يقولُ ذلك في منتَهى الصِّدْقِ ويَظَلُّ يتقدَّمُ في صِدْقِ اللّهجةِ هذا إلَى دَرَجةِ أَنّهُ بِسَبَبِ فَناءِ مَوْلانا في الحَقِّ [تعالى] لا يَدَعُ فَرْقًا بَيْنَهُ وبَيْنَ الحَقِّ»(١٢).

وقد يَنْطَبِقُ عَلَى الصّوفيّةِ الثّلاثةِ الذينَ قَدَّمْنا صُورةً لِ «الحَبيبِ الإلهيّ» عِنْدَ كُلٍّ مِنْهم، ما يَنْطَبِقُ عَلَى جُمْلَةِ الفانِينَ في حُبِّ اللهِ عن أَنْفُسِهم، الباقِينَ بَعْدَ ذلك في اللهِ. وهذا تَمامًا ما عَبَّرَ عنهُ جَلالُ الدِّينِ حِينَ تحدّثَ عن مَحْوِه بِحُسْنِ شَمْسِ تَبْريزَ وبَقائِهِ بِهذا الحُسْن:

**شَمْسُ تَبْرِيزَ نَفْسُه ذَرِيعةٌ وحُجّةٌ**
**نَحْنُ المَوْجُودُونَ بِالحُسْنِ واللُّطْفِ، نَحْنُ**
**فقُلْ لِلْخَلْقِ مِنْ أَجْلِ السَّتْرِ:**
**هُوَ مَلِكٌ كَرِيمٌ ونَحْنُ شَحّاذُونَ**
**وأَيُّ شَأنٍ لَنا بِالمَلِكِ والشَّحّاذِ؟**
**نَحْنُ مَسْرُورُونَ لِأَنّنا جَدِيرونَ بِالمَلِك**
**نَحْنُ مَمْحُوُّونَ بِحُسْنِ شَمْسِ تَبْرِيز**
**وفي عالَمِ المَحْوِ، لا يكونُ «هُوَ» ولا «نَحْنُ»**

(١٢) مولانا جلال الدّين محمّد بَلْخي، غَزَلِيّات شَمْس تبريز، اختيار محمّد رضا شفيعي كَدْكني، انتشارات سخن - طهران ١٣٨٧هـ.ش، ج١، ص١٩.

## خُلاصَةُ ما قَصَدَ إِلَيْهِ البَحْثُ:

عَرَضَ الكاتِبُ ثَلاثَ صُوَرٍ لِ «الحَبيبِ الإلهيِّ» في ثَلاثةٍ مِن آدابِ العالَم، وظَهَرَ أَنّ المُشْتَرَكَ بَيْنَ الشُّعَراءِ الثّلاثةِ أَنّ الذي يُؤَجِّجُ ضِرامَ الحُبِّ هُوَ جَمالُ المَحْبُوبِ الذي يَسْتبِدُّ بِ «المُحِبِّ»، فَلا يَجِدُ سَبيلًا إِلَى الرِّضا والطُّمَأنينةِ حتّى يُفْنِيَ ذاتَه في «الحَبيب»، فإذا بَلَغَ هذا المَقامَ بَقِيَ هُوَ بِ «الحَبيب». وتَتميَّزُ الصُّورةُ عِنْدَ نيكلسون بِأنّ قَصيدَتُه تَقْصِدُ إِلَى تَعْليمِ القارئ الغَرْبيِّ الطَّريقَ الذي يَسْلُكُهُ الرُّوحُ إِلَى الله. أَمّا في المَضْمُونِ الفِكْرِيِّ فيتّفِقُ الصُّوفيُّ الإنكليزيُّ تَمامًا ومَبادئ مَدْرسةِ جَلالِ الدِّين الرُّوميِّ الذي أَفْنَى شَطْرَ عُمُرِه الأكبَرَ في خِدْمةِ فِكْرِه الصُّوفيّ.

وعِنْدَ الشُّعَراءِ الثّلاثة كانَ القَلْبُ الأَداةَ القادِرَةَ عَلَى طَلَبِ المَزيدِ مِنَ الحُبِّ، وكانَتِ الغايةُ التي يَرْنُو إِلَيها القَلْبُ أَن يَفْنَى المُحِبُّ في الحَبيب، فلا يَبْقَى إِلّا «الحَبيبُ»، والمُحِبُّ الفاني فِيهِ. ومِن إِيحاءِ هذا المَعْنَى يَفْهَمُ المَرْءُ قَوْلَ جَلالِ الدِّينِ الرُّوميِّ: «قالَ تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، فاجْعَلْ نَفْسَكَ في وَجْهِهِ لِكَيْ لا تَهْلِكَ».

* * *

## مَصادِرُ ومَراجِعُ انتفعَ بِها البَحْثُ


- **بِالعَرَبيّة:**
- القُرْآنُ الكريم
- شَرْحُ دِيوانِ ابنِ الفارِضِ الذي جَمَعَهُ رَشيدُ بنُ غالِب مِنْ شَرْحَي

الشَّـيْخَيْنِ البُـوريني والنّابُلُسِـيّ، ط١، المَطْبعـةُ الأَزْهَرِيّـةُ المِصْـرِيّة، ١٣١٩هـ، ج١.

- يَدُ العِشْق، مُختاراتٌ مِـن دِيـوانِ شَـمْسِ تَبْريـزَ لِجَـلالِ الـدِّينِ الرّومـيّ، تَرْجَمةُ عيسى علي العاكوب، دار نِينَوى في دِمَشْقَ ١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م.

**- بالفارسيّة:**

- أحاديث مثنوي، الذي جَمَعَه وعَلّقَ عَلَيـهِ بـديعُ الزّمـان فُروزانْفَـرْ، ط٣، انتشارات أمير كبير، طهران ١٣٦١هـ.ش.
- مولانا جلال الدّين محمّد بَلْخي، غَزَليّات شمس تَبْرِيز، اخْتيـار وتقـديم محمّد رضا شَفيعي كَدْكَني، انتشارات سُخَن، طهران ١٣٨٧هـ.ش.
- نَفَحاتُ الأُنْس، نُور الدِّين عَبْدالرّحمن جـامي، نَشْـرةُ الـدّكتور محمـود عابدي، انتشارات اطّلاعات، طهران ١٣٧٠هـ.ش.

**- بالإنكليزيّة:**

- The Idea of Personality In Sūfism, three lectures delivered in The University of London by Reynold A. Nicholson. Cambridge, at The University Press, 1923.
- Mystical Poems of Rūmī 2, Jalāl al-Dīn Rūmī, Translated by A.J. Arberry, The University of Chicago Press 1991.

* * *